الفصل الخامس

محمد إقبال من رواد الصحوة الإسلامية

محمد إقبال من رواد الصحوة الإسلامية

المبحث الأول: ثورة الإسلام في الهند وتأثيرها على العالم العربي

- نظرة تاريخية:

أخذ الاستعمار الغربي يفرض سيطرته على العالم الإسلامي في القرن التاسع عشر من أدناه إلى أقصاه، فالاستعمار الإنكليزي ناء بكلكله على الهند، وأعلنت الملكة فيكتوريا عام ١٨٧٧م نفسها إمبراطورة الهند، وكذلك فرض سيطرته على العالم العربي مثل مصر والسودان، والعراق وبعض بلاد الشام خاصة.[١]

والاستعمار الهولندي سيطر على إندونيسيا، والاستعمار الفرنسي على المغرب العربي، وأصاب المسلمين ضعف شديد وانحطاط فكري وسياسي لا مثيل له... وظن المستعمر الغاشم أن الأمر استتب له ولن يعكر صفو سيطرته شيء... ولكن النار كانت تحت الرماد، وظهرت النار من أول نفخة للرماد، واشتعلت الثورات في البلاد الإسلامية... كانت ثورات فكرية عامة، سياسية اجتماعية، وكان يقود هذه الثورات العلماء العاملون، والمجاهدون المخلصون ولم يكونوا من أصحاب الاتجاهات الإقليمية أو القومية. ويعترف بهذا الأستاذ برنارد لويس[٢] في كتابه (الغرب والشرق الأوسط) في فصل سماه (ثورة الإسلام) يقول:

---

(١) استكمل الاستعمار الفرنسي والإنكليزي سيطرته على بلاد الشام بعد معاهدة (سايكس – بيكو) التي عقدت بينهما عام ١٩١٦م.

(٢) «الغرب والشرق الأوسط» من ترجمة نبيل صبحي، ط ١٩٨٦م، والأستاذ برنارد لويس: رئيس قسم التاريخ في كلية الدراسات الأفريقية والشرقية بجامعة لندن. ولد عام ١٩١٧م من عائلة يهودية في إنكلترا.. وانتقل في السبعينات إلى الولايات المتحدة الأمريكية محاضراً في جامعة =

«منذ بدء التغلغل الغربي في العالم الإسلامي حتى يومنا هذا كانت أهم الحركات الفكرية المتميزة المهمة الأصيلة التي قامت في وجهه حركات إسلامية».

ويقول: «وأقوى الحركات الثورية التي قامت والتي كسبت أقوى التأييد وأثارت حماس أغلب الجماهير كانت دينية شعبية في أصولها، وفي شعاراتها، وفي الأسلوب الذي عبرت به عن غاياتها وسبيلها».

ويقول أيضاً: «وأول ردود فعل المفكرين المسلمين لواقع الانحطاط والضعف الذي أصاب المسلمين كانت دينية وليست قومية».[١]

فقد لاقت القارة الهندية كثيراً من الويلات من الغزاة المستعمرين منذ القرن الخامس عشر الميلادي، من البرتغاليين والهولنديين والإنكليز والفرنسيين[٢] ورافق الاستعمار العسكري غزو فكري وثقافي اجتاح المجتمع كافة.

يقول برنارد لويس يصف أحوال المسلمين في هذه المرحلة:

«لقد ضعف الإسلام في الهند إلى درجة الخطورة بسبب التهاون والهرطقة والتصوف المتطرف، ولقد هُدِّد الإسلام بعودة الهندوكية تدريجياً إلى قوتها من جهة والكاثوليكية النشطة التي جاء بها البرتغاليون من جهة أخرى».[٣]

= برنستون، وفي كل كتبه الكثيرة عن الإسلام والمسلمين كان يحمل مشعل العداء لله وللإسلام والمسلمين، ومن أكبر أنصار إسرائيل بل من أكبر أنصار المحافظين الجدد في الولايات المتحدة الأمريكية.

(١) المرجع السابق - ص ١٤٨ - ١٤٩.

(٢) انظر تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم: محمد محمود الساعاتي - الجزء الثاني.

(٣) الغرب والشرق الأوسط: برنارد لويس - ص ١٥٠.

في هذه المرحلة الحرجة من تاريخ الإسلام في الهند ظهرت حركات تجديدية إسلامية متتابعة، بعضها حركات فكرية، وبعضها حركات جهادية اجتماعية، ويقودها علماء نذكر منهم:

الشيخ المجدد أحمد السرهندي[١]:

ظهرت حركته وقويت في عهد الملك جهانكير المتوفى ١٠٣٧م، وبعد أن وصل الإسلام إلى حالة من الضعف والهوان لا توصف.

ومن واقع المسلمين هذا نهض الشيخ السرهندي بدعوته التي تركزت على تثبيت العقيدة الصحيحة، والقضاء على معالم الوثنية الهندوكية والديانات الأخرى.

الإمام ولي الله الدهلوي[٢]:

وبعد وفاة الشيخ السرهندي ولد الإمام ولي الله الدهلوي في ضواحي مدينة دلهي. وأحوال الهند في حالة تقهقر سياسياً وفكرياً وعقيدياً.

---

(١) لقب بمجدد الألف الثاني للهجرة، ولد سنة ٩٧١هـ (١٥٦٤م)، وتوفي في ١٠٣٤هـ (١٦٢٤م).

(٢) الإمام ولي الله الدهلوي: هو الإمام قطب الدين أحمد بن عبد الرحيم المعروف بشاه ولي الله الدهلوي. ولد سنة ١١١٤هـ (١٧٠٣م). قرأ وحفظ القرآن على أبيه وهو ابن سبع سنين، وفاق أقرانه بالعلوم وهو ابن خمس عشرة سنة، اشتغل بالتدريس، وزار الحرمين الشريفين سنة ١١٤٣هـ. وقرأ الحديث على الشيخ أبي الطاهر محمد بن إبراهيم الكردي المدني المتوفى سنة ١١٤٥هـ. ثم رجع إلى الهند عام ١١٤٥هـ وبقي فيها يدرس ويؤلف ثلاثين سنة، وقد انتفع بعلمه خلق كثير. ومن أشهر مؤلفاته: حجة الله البالغة، والمسوى شرح الموطأ (بالعربية)، والمصفى (بالفارسية) وشرح تراجم أبواب صحيح البخاري، والإرشاد إلى مهمات الإسناد، وفتح الرحمن في ترجمة القرآن، وغير ذلك من المؤلفات القيمة..

يقول أبو الأعلى المودودي:

«ولكن من أعاجيب الدهر أن ينشأ في مثل هذا العصر الخامل المظلم مفكر متبصر، حر الرأي، يفكر متجرداً عن أوضاع بيئته وزمانه، ويفك أغلال المسلم التقليدي، والعصبيات الراسخة في النفوس على طول القرون... إن الإمام ولي الله - لا ريب - من زعماء التاريخ الإنساني الذين يعالجون مرتبك الأفكار، متشابك الآراء، فيجلون غامضها، ويحلون مقصدها، ويضعون للفكر والنظر الإنساني نهجاً واضحاً مستقيماً، ثم يخلفون في نفس الناس تضجراً من الأحوال الراهنة، ويتركون في أذهانهم صورة رائعة لبرامج الإصلاح والإنشاء، مما يفضي، لا محالة، إلى أن تنبعث منهم حركة لهدم الفاسد وعمارة الصالح».[١]

أحمد بن عرفان الشهيد والشاه إسماعيل الدهلوي:

ومن رواد النهضة الإسلامية في الهند الإمام أحمد بن عرفان البريلوي ١٢٠١ - ١٢٤٦ هـ(١٧٨٦ - ١٨٣١م) الذي درس على يد الشاه عبدالقادر ابن ولي الله الدهلوي. بدأ يرشد الناس ويدعوهم إلى الاعتصام بالكتاب والسنة، وأدى فريضة الحج سنة ١٢٣٧هـ(١٨٢١م) بصحبة المئات من أتباعه. وبعد عودته نادى بالجهاد في سبيل الله لتحرير الهند من السيطرة الإنكليزية التي بدأت في الهند سنة ١٦٠٠م على يد شركة الهند الشرقية، ثم استولت على الهند عند انتهاء القرن الثامن عشر الميلادي.[٢]

---

(١) تجديد الدين وإحياؤه للمودودي - ص ١٣٨ - ١٤٠، وانظر مقدمة كتاب الإنصاف للدهلوي بقلم رشيد أحمد.

(٢) انظر تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند - ص ١٨٨.

ندوة العلماء:

بعد مرحلة الكفاح المسلح ضد الاستعمار الإنكليزي، التي تبلورت في ثورة عام ١٨٥٨م والقضاء على المملكة الإسلامية في الهند، وانضوائها تحت التاج البريطاني... تبدأ مرحلة جديدة من اليقظة الإسلامية، شعاراتها تربوية تعليمية أكثر منها عسكرية، وذلك لأن المسلمين أصيبوا بمحن وآلام، حملوا لواء الثورة، وقدموا أرواحهم رخيصة في سبيل الله.

وكان العلماء المسلمون في ذلك العصر في نزاع وشقاق أدى إلى تكفير بعضهم بعضاً، وكان من نتيجة ذلك أن انشغلوا في الجدل والمراء فيما بينهم، عن مقاومة أعداء الإسلام والدفاع عن المسلمين، في هذه الأثناء وفق الله عز وجل بعض عباده المخلصين، ففكروا في أمر المسلمين، وتنبهوا للخطر المحدق بهم، فجلسوا وتشاوروا ثم اتفقوا على تأسيس جمعية تجمع المسلمين على هدف واحد وتحت قيادة واحدة فأسسوا في عام ١٣١١هـ (١٨٩٢م) ببلدة كانفور جمعية ندوة العلماء.[١]

ونلمس الاتجاه التربوي لجمعية ندوة العلماء في أهدافها التي ذكرها رئيسها الشيخ أبو الحسن الندوي وهي:

١- مقاومة الاستعمار في مجال التاريخ والثقافة والدفاع عن الإسلام وتاريخه فيما يشوهه أعداؤه.

٢- رفع النزاع والشقاق من بين المسلمين عامة ومن بين علمائهم وأحزابهم خاصة.

---

(١) ارجع إلى: المسلمون في الهند، للندوي، ص ١١٧ - ١٣٤، وتاريخ الدعوة الإسلامية في الهند لمسعود الندوي، ص ١١٥.

٣- التوسط بين القديم والجديد وإبعاد الخلاف بينهما.

٤- إصلاح المدارس الدينية القديمة والتغيير اللائق في منهجها الدراسي.[١]

وقد أثمرت جهود ندوة العلماء في الهند، وعم فضلها على العالم الإسلامي عامة، وعلى البلاد العربية خاصة، وذلك بعقد الندوة العالمية للأدب الإسلامي التي عقدتها كلية اللغة العربية بدار العلوم بمقرها في لكهنو في ١١ جمادى الآخرة ١٤٠١هـ -(١٧ نيسان / أبريل ١٩٨١م). وقد حضر الندوة أكثر من مئتي مندوب من القارة الهندية والبلدان العربية، برعاية الشيخ والأديب الكبير أبي الحسن علي الحسني الندوي رئيس ندوة العلماء.

وكان من توصيات هذه الندوة العمل على نشر اللغة العربية والثقافة الإسلامية في كافة أنحاء العالم بوجه عام، وتعزيز مكانة اللغة العربية في سائر الدول الإسلامية بوجه خاص.[٢]

وهكذا قامت الندوة في الهند بتحقيق الأمنية التي يتمناها كل مسلم والتي قصر عنها العالم العربي ذاته، وشهد لها العالم الإسلامي كله بالفضل السابق، وشكر لهم جهدهم وخدمتهم للغة القرآن الكريم وللأدب الإسلامي عامة.

---

(١) دور المسلمين القيادي والاجتهادي في الهند، لأبي الحسن الندوي، الأمانة العامة لندوة العلماء ١٤٠٠هـ.

(٢) الأدب الإسلامي فكرته ومنهاجه، الأمانة العامة لندوة الأدب الإسلامي العالمية - ط ١ ، ١٤٠٠هـ.

المبحث الثاني: محمد إقبال والصحوة الإسلامية

- محمد إقبال من رواد الصحوة الإسلامية :

إن ظاهرة الصحوة الإسلامية التي نشاهدها ونعيشها اليوم، لم تنبت، ولم يستو سوقها، ولم تورق أغصانها، ولم تثمر شجرتها... من دون أرض خصبة وعناية دائمة، وتغذية مستديمة... وبكلمة أوضح من ذلك: إن الصحوة الإسلامية لم تكن بنت ليلتها... وإنما جذورها تمتد إلى الوراء سنين عديدة، حيث عمل لها كثير من المخلصين، وأمدوها بعصارة تفكيرهم، وأقصى جهدهم وتضحيتهم، وجهادهم الدائم... حتى آتت أكلها هذه الأيام.

ولن نكون مغالين إذا قلنا: إن الشاعر والعلامة محمد إقبال هو من القلائل الذين نادوا بهذه الصحوة المباركة، وجاهدوا في سبيلها...

ولقد رأيناه منذ أكثر من مئة عام، يهز المسلمين هزاً عنيفاً بشعره وقلمه، ليوقظهم من سباتهم الذي طال أمده، واستفحل ضرره.

ولم يكتف إقبال بالكلام فقط، وهو قابع في برجه العاجي، كما نجد ذلك عند كثير من الشعراء والمفكرين، بل خاض غمار المعارك الفكرية بين الإسلام وخصومه، واشترك في الجمعيات الإسلامية، وألقى المحاضرات في الجامعات في الهند، وفي البلاد الغربية، التي أكمل فيها دراسته مثل إنكلترا وألمانيا. ومن يطالع دواوينه الشعرية يجد ذلك المجاهد الذي يصيح بشكل دائم يدعو المسلمين إلى النهضة، وإعادة مجدهم التليد، وإلى إثبات ذاتهم المفقودة بتأثير ضربات الأعداء.

إن جميع أشكال الصحوة الإسلامية وصورها في الوقت الحاضر نجد جذورها عند العلامة إقبال، وتتمثل هذه الجذور فيما يأتي:

أ – الدعوة إلى يقظة العالم الإسلامي من سباته العميق.

ب- الدعوة إلى الإسلام ديناً ودولة، ومحاربة العلمانية بكافة صورها وأشكالها.

ج- الدعوة إلى الوحدة الإسلامية لتكون قوة دولية عالمية.

د – الدعوة إلى الجهاد لتحرير البلدان الإسلامية من الاستعمار القديم والجديد.

هـ- كشف مساوئ المدنية الغربية، وحضارتها الزائفة، والاستفادة من محاسنها بشكل متوازن.

و- السمو فوق مستوى الخلافات المتنوعة والمزروعة في العالم الإسلامي.

ز- التجديد الدائم للتفكير الديني، والتعامل مع العصر الحاضر بالأسلوب الملائم، ونبذ الجمود والتقليد، والتحول إلى الاجتهاد والتجديد.

ح- التوجه إلى الشباب الذين هم عماد الأمة، وذخر البلاد وقوة الجهاد لتسديد خطاهم، لئلا ينحرفوا إلى الشرق أو إلى الغرب.

- نظرة محمد إقبال إلى الواقع الإسلامي:

نظر إقبال إلى العالم الإسلامي نظرة فاحصة دقيقة، نظرة الطبيب إلى المريض، ليعرف مرضه ويصف له العلاج اللازم، فرآه مريضاً بأمراض كثيرة، تقتضي منه تكريس وقت طويل لعلاجه، فكرس حياته كلها لعلاج هذه الأمراض المستعصية في جسم العالم الإسلامي.

وإننا في غير هذا الموضع تكلمنا عن واقع العالم الإسلامي، والآن نلقي نظرة تحليلية، كما يراها إقبال، على هذا العالم الذي تناوشته الآفات من كل الجهات حتى من نفسه.

ففي بدايات هذا القرن نظم إقبال قصيدتين: شكوى، وجواب الشكوى[١] ليعبر فيهما عما يكنه صدره تجاه واقع أمته، بأسلوب حواري يوحي لأبناء أمته الإجابة على تساؤلاتهم وحيرتهم وضعفهم وتخلفهم عن ركب الأمم، وخضوعهم وذلهم لغيرهم من الأمم المستعمرة القوية.

ويرى إقبال، في قصيدة جواب الشكوى، أن مرض الأمة الإسلامية يبرز فيما يأتي:

أ- إهمال الرسالة الإسلامية التي جعلت منها أمة حية قوية في يوم ما، ويقظة الروح الجاهلية في نفوس أبنائها من جديد. يصور إقبال هذا في صورة رائعة فيقول حسب تعريب الصاوي شعلان:

تُراثُ محمدٍ قد أهملوهُ ... فعاشوا في الخلائقِ مُهْمَلينا

تولّى هادمو الأصنامِ قِدْماً ... فعادَ لها أولئك يصنعونا

أباهُمْ كان إبراهيمُ لكنْ ... أرى أمثالَ آزَرَ في البنينا[٢]

ب- ضياع الإيمان والدين والوفاء، وشيوع الظلم وفساد الأخلاق، يقول إقبال:

---

(١) نظم إقبال هاتين القصيدتين قبل عام ١٩١٠م، وأنشدهما في جمعية حماية الإسلام (ارجع إلى روائع إقبال للندوي – ص ٢٣- ٢٤).

(٢) آزر أبو إبراهيم الخليل عليه السلام، كان يصنع الأصنام ويبيعها.

لقد ذهبَ الوفاءُ فلا وفاءٌ وكيف ينالُ عهدي الظالمينا
إذا الإيمانُ ضاعَ فلا أمانٌ ولا دنيا لمن لم يُحْيِ دينا
ومن رضيَ الحياةَ بغير دينٍ فقدْ جعلَ الفناءَ لها قرينا[١]

ج- ومن أسباب مرض المسلمين التفرق بعد أن كانوا أمة واحدة فأصبحوا أمماً متفرقة، يقول إقبال:

وفي التوحيدِ للهممِ اتحادٌ ولن تبنوا العُلا متفرقينا
تساندتِ الكواكبُ فاستقرتْ ولولا الجاذبيةُ ما بقينا[٢]

د- ومن العلل أيضاً الرقاد الطويل والكسل والخمول، وعدم بذل الجهد، وضياع تراث الآباء والأجداد، بينما الأمم الأخرى استفادوا من تراث الأجداد ففازوا، يقول إقبال:

أتشكو أن ترى الأقوامَ فازوا بمجدٍ لا يراهُ النائمونا
مشوا بهدْيِ أوائلكمْ وجدّوا وضيَّعْتم تراثَ الأولينا
أيحرمُ عاملٌ وِرْدَ المعالي ويسعدُ بالرقيِّ الخاملونا؟!

هـ- ترك الجهاد في سبيل الله، والخوف من الموت، والوهن الذي عشعش في النفوس فلم يبق فيها حياة، فكان ما كان من قهرنا وذلنا تجاه الأعداء:

---

(١) انظر قصيدة جواب الشكوى في كتاب الأعلام الخمسة للشعر الإسلامي – ص ٢٤، وكتاب إقبال سيرته وفلسفته وشعره – لعزام – ص ٩٦.

(٢) المرجع السابق.

جهادُ المؤمنينَ لهمْ حياةٌ ألا إنَّ الحياةَ هيَ الجهادُ
وخوفُ الموتِ للأحياءِ قبرٌ وخوفُ اللهِ للأحرارِ زادُ[١]

ويرى إقبال أن من أسباب ترك العمل والجهاد تغلغل فلسفة اليونان في الثقافة الإسلامية، التي تدعو إلى ترك الدنيا، وإلى الخمول والتواكل، وأفرد إقبال لهذه العلة قصيدة في ديوانه (أسرار خودي) بيَّن فيها كيف أن أفلاطون اليوناني أثرت آراؤه في تصوف المسلمين وآدابهم، يقول إقبال:

راهبُ الماضينَ أفلاطُ الحكيمْ من فريق الضأن في الدهرِ القديمْ[٢]
فكرُهُ في غيرِ محسوسٍ فتنْ صدَّ عن كفٍّ وعينٍ وأذنْ
قال: في الموتِ بدا سرُّ الحياةْ في خمودِ الشمعِ يزدادُ سناهْ
هو شاةٌ في لباسِ الآدميّ وَهْوَ في الصوفِيِّ ذو بأسٍ قويّ[٣]

---

(١) المرجع السابق.

(٢) يشير إقبال إلى مذهب الضأن الذي بَيَّنه في قصة الأسود والغنم، ص ٢٧، من ديوان الأسرار والرموز (مرجع سابق).

(٣) لا يتسع المجال هنا للقول في مذهب أفلاطون وتطوره إلى مذهب أفلوطين من بعد، وأثر هذا في النصرانية وفي بعض مذاهب الصوفية. فحسبنا أن نقول: إن إقبالاً يدعو إلى إدراك الذات وتقويتها وإلى العمل الدائب والجهاد الذي لا يفتر، ويرى أن الحياة في العمل والجهاد، والموت في الاستكانة والسكون، ويرى أن عالم المادة كائن واقعي لا خيالي وأن عمل الإنسان تسخير هذا العالم، وفي الجهاد قوته وكماله. وهذا المذهب يخالف مذهب أفلاطون، والمذاهب التي تفرعت منه جملة وتفصيلاً، ومذاهب فلاسفة الهند، ويخالف التصوف غير الإسلامي أو التصوف العجمي كما يقول إقبال. (انظر كتاب محمد إقبال، سيرته وفلسفته وشعره، د. عبد الوهاب عزام – ص ١١٢ – ١١٣).

هُـلْـكُ أقــوامٍ بـهـذا الـتَّـمَـلِ حُرِموا بالنوم ذوقَ العملِ [١]

و – التعليم العصري لشباب الإسلام: وعدّ إقبال التعليم العصري بالأسلوب الغربي من أسـباب ضـعف المسـلمين أيضـاً، إذ إنه اعتنى بتربية عقل الشـباب وتثقيف لسـانهم ولم يعتن بتغذية قلوبهم، وتهذيب نفوسـهم، فنشـأ جيل غير متوازن القوى، غير متناسـب النشأة، قد تضخم وكبر في بعض إنسـانيته وحياته على حساب بعض، وأصبح التفاوت بين عقله وجسمه كبيراً، فالأول ضخم كبير، والثاني ضعيف ناعم.[٢]

يقول إقبال: إن الشـباب المثقف فارغ الأكواب، ظمآن الشفتين، مصقول الوجه، مظلم الروح، مسـتنير العقل، كليل البصـر، ضـعيف اليقين، كثير اليأس، ينكرون أنفسـهم ويؤمنون بغيرهم، شـغفتهم الحضـارة الغربية، فيمدون أكفهم إلى الأجانب ليتصدقوا عليهم بخبز شعير ويبيعون أرواحهم في ذلك. إن الإفرنج قد قتلوه من غير حرب ولا ضرب.[٣]

ومـن رأي إقبال أيضـاً أن التعليم الغربي قد أضـعف الروح المعنوية في الشـباب المسـلم، وجنى على رجولته جناية عظيمة، فأصـبح شـباباً رخواً رقيقاً مائعاً، لا يستطيع الجهاد ولا يتحمل المكروه، يقول في قصيدة يخاطب فيها بعض المربين:

«حيا الله شـبيبتك يا مربي الجيل الجديد، ألق عليهم درس التواضـع، وهضـم النفس على الاعتـزاز بالنفس والاعتـداد بالشخصـية، علمهم

(١) الأسرار والرموز لعزام – ص ٣٠ – ٣١.

(٢) روائع إقبال للندوي – ص ٥٥.

(٣) المرجع السابق بتصرف – ص ٥٥ – ٥٦.

كيف يشقون الصخور ويدكون الجبال، فإن الغرب لم يعلمهم إلا صنع الزجاج.[١]

يقول إقبال في ديوانه (ضرب الكليم) يبين فساد التعليم الغربي:

ولتعليم النصارى كَمْ نغمْ ... ليسَ من دينٍ وخلقٍ ذا النغمْ

تكتبُ الذلَّ على أقدارِها ... أمةٌ بالذاتِ منها لا تَهُمْ

ربما تغفرُ للفردِ ولا ... تغفرُ الفطرةُ آثامَ الأممْ[٢]

وكان من نتائج الغزو الفكري الغربي للعالم الإسلامي، انتشار الإلحاد والأفكار الهدامة، والنظرات الإقليمية والقومية، وكلها أسهمت في تمزيق الأمة الإسلامية، وأبعدتها عن دينها وتاريخها وحضارتها.

يقول إقبال، وقد ساح في كثير من البلاد الإسلامية والعربية:

«لقد تجولت في بلاد العرب والعجم، فرأيت خلفاء أبي لهب كثيرين تفيض بهم البلاد، والمتشبعين بروح محمد ﷺ كالكبريت الأحمر».[٣]

ويقصد إقبال بخلفاء أبي لهب دعاة العصبية والوطنية والقومية.

ويقول إقبال: «يقال للمسلمين في الهند: إن تشكيل الشعوب يقوم أساساً على الوطنية، ونبذل النصيحة لهم بأن يتمسكوا بهذه النظرية ويختاروها

---

(١) المرجع السابق – ص ٥٨ – ٥٩، وأيضاً كتاب (الإسلام على مفترق الطرق) لمحمد أسد، فصل في التربية – ص ٦٧ وما بعدها.

(٢) انظر ديوان: ضرب الكليم – تعريب عزام.

(٣) روائع إقبال للندوي – ص ٩.

كعقيدة سياسية، وإني مطلع على آراء المصنفين الغربيين، وعلى يقين بأن مقصد إذاعة هذه النظرية هو تمزيق وحدة الأمم الإسلامية».[١]

وقد يسأل المرء: إن إقبالاً نفسه كان خريج المدرسة الغربية ولابد أنه قد تأثر فيها.

ويجيب عن هذا السؤال الشيخ أبو الحسن الندوي فيقول:

إن إقبالاً من أولئك الرجال المعدودين الذين خاضوا بحر التعليم الغربي فلم يخرجوا من قعره سالمين فقط، بل وقد جاؤوا معهم بدرر كثيرة، وازدادوا إيماناً بخلود الإسلام ومضمراته الواسعة، وازدادوا ثقة بأنفسهم، ولو كان من الصعب أن يحكم على إقبال أنه لم يخضع للتعليم الغربي والفلسفة الغربية في قليل أو كثير، إن فهمه للدين يطابق الكتاب والسنة وفهم السلف تماماً، ولكن الذي لا مرية فيه أنه لم ينصهر في بوتقة الغرب، كما انصهر الآلاف من معاصريه، وحق له أن ينشد في هذه المناسبة شعره الذي معناه:

«كسرت طلسم العصر الحاضر وأبطلت فكره، التقطت الحبة، وأفلت من شبكة الصياد، يشهد الله أني كنت في ذلك مقلداً لإبراهيم، فقد خضت في هذه النار واثقاً بنفسي، وخرجت منها سليماً محتفظاً بشخصيتي».[٢]

- دعوة إقبال إلى اليقظة الإسلامية:

ويسعى الغرب بكل ما أوتي من قوة ومن كيد أن يبقى العالم الإسلامي نائماً، مخدراً منشغلاً بقضايا لا تمت إلى الواقع بصلة، حتى لا يستيقظ

---

(١) وكذلك في كل البلاد الإسلامية والعربية حيث انتشرت النعرة القومية بتأثير المدرسة الغربية فيها.

(٢) روائع إقبال للندوي – ص ٧٧ – ٧٨.

ويثور على واقعه، ويحطم الأغلال التي تقيده. يصور إقبال هذا الأمر على لسان إبليس عدو الإنسان الأول يخاطب الأبالسة المؤتمرين بأمره: في قصيدة برلمان إبليس في ديوانه (أرمغان حجاز):

«فابذلوا جهدكم أن يظل هذا الدين متوارياً عن أعين الناس، وليهنكم أن المسلم بنفسه هو ضعيف الثقة بربه، قليل الإيمان بدينه، فخير لنا أن يظل مشتغلاً بمسائل علم الكلام والإلهيات، وتأويل كتاب الله والآيات، اضربوا على أذان المسلم، فإنه يستطيع أن يكسر طلاسم العالم، ويبطل سحرنا بأذانه وتكبيره، واجتهدوا أن يطول ليله، ويبطئ سَحَرُه.

يا شقوتنا!! لو انتبهت هذه الأمة، التي يعزم عليها دينها أن تراقب العالم».[١]

لهذا كله عزم إقبال على إيقاظ الأمة الإسلامية من رقدتها الطويلة العميقة واستخدام شعره في سبيل ذلك.

يقول إقبال:

«هبَّ أيها المسلم النائم، وكن متحمساً يقظاً، فها هو الصبح قد طلع، فكن من المستفيدين منه».[٢]

ويقول إقبال حسب ترجمة الصاوي شعلان:

قمْ أَنقذِ الوطنَ الكريمَ ولا تنمْ هذي الحوادثُ آذنتْ بدخانِ

(١) انظر روائع إقبال للندوي – ص ١٠٧، وكذلك محمد إقبال وديوان أرمغان حجاز (مرجع سابق) – ص ١٤٣.

(٢) إقبال أور مسلمانان بر صغير كي بيداري معتصم بالله، مجله: كريسنت إقبال، نبمر سنة ١٩٧٧م.

إني لألمحُ في السماءِ تآمراً ... وأرى طلائعَ وابلِ النيرانِ

فاخلُقْ لروحِكَ من زئيركَ نشوةً ... في المجدِ ترهبُ في العرينِ أسودا

واجعلْ نشيدَكَ قولَ ربك (لاتخفْ) ... حتى يخافَ البرقُ منك رعودا[١]

وفي ديوان (زبور عجم) يهيب إقبال بالمسلم أن يستيقظ ويكفيه نوما بعد أن دهم الأعداء دار الإسلام ونهبوا خيراته، واستذلوا شعبه.

يقول: «افتح عينيك أيها الزهر النائم مثل النرجس الذي لا يطبق عينيه لحظة، ولا يعرف الكرى إليه سبيلاً، لقد أغار على وكرنا الأعداء ونهبوا كل ما فيه من كنوز وخيرات، ألا يكفي هديل الحمام، وصفير الأذان، وأنين القلوب والأرواح أن يوقظك، انتبه من هذا السبات العميق الذي طال أمده واشتدت وطأته».[٢]

ويقول في الديوان نفسه:

«انهض أيها المسلم وفي إحدى يديك المصحف وفي الأخرى السيف، فباجتماعهما تسعد البشرية وتخصب المدنية، انتبه من السبات العميق الذي طال أمده واشتدت وطأته».

وفي الديوان نفسه يتعجب إقبال من حال المسلم الخائف الغافل اليوم وهو الذي بنى الحضارة في الأمس، وأنار درب المدنية والتقدم في يوم ما. وهو يدعوه إلى اليقظة، والوعي والشجاعة حتى يستعيد مجده وسؤدده:

---

(١) الأعلام الخمسة للشعر الإسلامي (مرجع سابق) – ص ٣٨.

(٢) روائع إقبال للندوي – ص ١٠٠ – ١٠١ نقلاً عن زبور عجم – ص ١١٦ – ١١٨.

«عجباً لك أيها المسلم! تجلت لك الآفاق، وغابت عنك نفسك! إلى متى تظل غافلاً جاهلاً؟ وتجلس ضائعاً عاطلاً؟ إن نورك الوهاج أنار العالم القديم، ونسخ الليل البهيم، ولا تزال اليد البيضاء التي ورثتها عن موسى في كُمك، تخط حدود الآفاق الضيقة، فأنت السابق لها، والفائق عليها، فقد كنت ولم تكن، وستكون ولا تكون. هل تخاف الموت أيها الإنسان الحي الخالد؟! لقد كان جديراً بالموت أن يخافك، فأنت تكمن له، وترصد به. اعلم يقيناً أن الكريم إذا وهب شيئاً لا يسلبه ولا يسترده، وليس حتف ابن آدم في فراق الروح، إنما حتفه في ضعف الإيمان، والحرمان من اليقين».[١]

ويوجه إقبال خطابه إلى العرب حملة الرسالة الإسلامية في قصيدته الجميلة إلى الأمة العربية يستنهض هممهم ويذكرهم بأجدادهم، وصحابة رسول الله ﷺ:

«إن الله قد رزقكم البصيرة النافذة، ولا تزال فيكم الشرارة كامنة، فقوموا أيها العرب، وردوا فيكم روح عمر بن الخطاب مرة أخرى. إن منبع القوة ومصدرها هو الدين، منه يستمد المؤمن العزم والإخلاص واليقين. وما دامت ضمائركم أمينة للسر الإلهي، في إعمار البادية، أنتم الحراص للدين وأمناء الله في العالمين».

ويعتقد محمد إقبال أن الضربات المتلاحقة من قبل الغرب للعالم الإسلامي أقضت مضجع المسلمين وأيقظتهم، وأعادت لهم الحياة. يقول في قصيدته طلوع الإسلام:

---

(١) روائع إقبال للندوي – ص ٩٨ نقلاً عن زبور عجم – ص ١٦٤.

«إذا رأيت النجوم شاحبة منكدرة تخفق، فاعلم أن الفجر قريب. ها هي الشمس قد ذر قرنها من الأفق، وولى الليل على أدباره، إن عاصفة الغرب قد أعادت المسلم إلى الإسلام، فإنما تتكون اللآلئ في البحر المتلاطم ذي الأمواج الهائجة لقد دب دبيب الحياة في المشرق، وجرى الدم الفائر في عروقه الميتة، إن المسلم سيمنح من الله الأبهة التركية، والذكاء الهندي، والمنطق العربي».[١]

- إقبال والمدنية الغربية والفلسفات الإلحادية:

وصحا المسلمون على المدنية الغربية، وقد ملأت أسماع الدنيا بمظاهرها وزينتها وزخرفها، فانخدعوا بها وامتلأت أفئدتهم الخالية بها، وقد تولى محمد إقبال كشف زيفها، وإظهارها بغير ملابسها البراقة... وهو الذي عرفها عن كثب، وسبر غورها، ورأى جوانب ضعفها وبوادر إفلاسها، وطلائع الانبهار في المجتمع الغربي عموماً... ولا أدري هل سبق إقبال مفكري الغرب[٢]، وعلماء الاجتماع والحضارة فيه، بالتنبؤ بسقوط هذه الحضارة العرجاء، كما وصفت، لأنها تسير على رجل واحدة... وهي المادة، ونسيت روحها وإنسانيتها.

وأما أن إقبالاً أول من نقد الحضارة الغربية من العلماء المسلمين فهذا أمر لا ريب فيه.

---

(١) روائع إقبال للندوي – ص ١١١.

(٢) من أمثال شبنغلر مؤلف كتاب (سقوط الغرب)، وكولن ولسون مؤلف (سقوط الحضارة)، وألكسس كارل مؤلف كتاب (الإنسان ذلك المجهول)، وثبت أن إقبالاً سبقهم في ذلك، والدليل على ذلك نقده للحضارة الغربية في بداية هذا القرن.

يقول الشيخ أبو الحسن الندوي:

«لقد كان في مقدمة هؤلاء الناقدين الثائرين محمد إقبال الذي يعتبر بحق أنبغ عقل أنتجته الثقافة الجديدة، والتي ظلت تشتغل وتنتج في العالم الإسلامي من قرن كامل، وأعمق مفكر أوجده الشرق في عصرنا الحاضر، ولم نر من نوابغ الشرق وأذكيائه – على كثرة من لهم اتصال بالغرب والدراسة هناك – أحداً نظر في الحضارة الغربية هذا النظر العميق وانتقدها هذا الانتقاد الجريء».[١]

فإقبال يقرر أولاً أن الحضارة الغربية حضارة لا دينية، تقضي على الإيمان والروح والحب والإنسانية... يقول في ديوانه (ماذا ينبغي أن نعمل يا أمم الشرق؟):

«ولكن إياك والحضارة اللادينية التي هي صراع دائم مع أهل الحق؛ إن هذه الفتنة تجلب فتنا، وتعيد اللات والعزى إلى الحرم، إن القلب يعمى بتأثير سحرها، وإن الروح تموت عطشاً في سرابها، إنها تقضي على لوعة القلب، بل تنزع القلب من الجسم، إنها لص قد تمرن على اللصوصية، فيغير نهاراً جهاراً، وإنها تدع الإنسان لا روح فيه ولا قيمة له».[٢]

ويقول: «إن شعار الحضارة الحديث الفتك ببني آدم الذي تقوم عليه تجارتها وتنفق سلعتها، ليست هذه المصارف العظيمة إلا وليدة دهاء اليهود الأذكياء الذي انتزع نور الحق من صدور بني آدم، إن العقل والحضارة والدين حلم من الأحلام ما لم يعد هذا النظام رأساً على عقب».[٣]

---

(١) روائع إقبال للندوي – ص ٣٨.

(٢) المرجع السابق – ص ٦٩.

(٣) المرجع السابق – ص ٧٠.

ويقول أيضاً:

«إن المدنية التي تتحكم فيها الآلات وتسيطر فيها الصناعة تموت فيها القلوب ويقتل فيها الحنان والوفاء، والمعاني الإنسانية الكريمة».

ويكرر هذه المعاني في ديوانه (ضرب الكليم)، ويبين أن الحضارة الغربية خلت من الروح والجمال والذوق والعفة، فيقول:

أرى تثقيفَ إفرنجٍ ... فسادَ القلبِ والنظرِ
فروحُ حضارةٍ لهمُ ... خلَتْ من عفةِ الوطرِ
إذا ما الروحُ جانبَها ... جمالُ الصفوِ والطُّهْرِ
فأينَ جمالُ وِجْدانٍ ... ولطفُ الذوقِ والفِكْرِ [1]

لهذا لا يمكن الثقة بهذه الحضارة، ولا هذه المدنية، وليس فيها خير لنفسها فكيف يكون فيها خير لغيرها... وهي تقابل الإحسان بالإساءة والخير بالشر... يقول إقبال في ديوانه (ضرب الكليم)[2]:

أهدتِ الشامُ إلى الغربِ نبياً[3] ... هو عفٌّ ومواسٍ وصَبورْ
ومن الغربِ إلى الشامِ هدايا ... من قِمارٍ ونساءٍ وخُمورْ

وأتبع إقبال نقده للحضارة الغربية نقده لدعاة التغريب وإن سموا أنفسهم دعاة التجديد؛ الذين ينادون بتقليد الحضارة الغربية بخيرها

---

(١) ضرب الكليم – ص ٥٠.

(٢) ضرب الكليم لعزام – ص ١٠٧، وانظر أيضاً روائع إقبال للندوي – ص ٧٤.

(٣) يقصد إقبال بالنبي عيسى عليه السلام الذي ولد في فلسطين.

وشرها، وحلوها ومرها، يقول إقبال في ديوانه (ضرب الكليم): «إنني يائس من زعماء التجديد في الشرق فقد حضروا في نادي الشرق بأكواب فارغة وبضاعة مزجاة في العلم والفكر.

إن البحث عن بريق جديد في هذا السحاب عبث وإضاعة وقت، فقد تجرد هذا السحاب عن البرق القديم فضلاً عن البرق الجديد».

وإقبال يسيء الظن بدعاة التجديد، ويكشف سترهم بأن هذا التجديد ما هو إلا حيلة لتقليد الغرب، ويدعو المسلم إلى الاعتزاز بشخصيته وكيانه، يقول إقبال:

«إن الذي يأتي بالجديد في هذا العالم الذي يتجدد دائماً، هو نقطة الدائرة التي يطوف حولها الزمان، لا تعطل شخصيتك أيها المسلم بالتقليد الأعمى، واحتفظ بكرامتك فإنها الجوهر الفرد، إن التجديد بمعنى التغريب لا يليق بأمة لا تفكر إلا في الدَّعة والترف، إنني أخاف أن تكون الدعوة إلى التجديد إنما هي حيلة وانتهاز لفرصة تقليد الغرب».[1]

وإقبال في ديوان (ضرب الكليم) يؤكد أن الحضارة التي تسير نحو الموت لا يمكن أن تحيي العرب الذين فتنوا بها، وعميت عن رؤية الحقيقة، يقول:

كيفَ تجلى حقائقٌ لعيونٍ ... عميَتْ بالخضوع والتقليدِ

كيفَ يُحْيي الفرنجُ عُرْباً وفُرْساً ... بفنونٍ تسيرُ نحوَ اللحودِ

(١) ديوان ضرب الكليم – تعريب عزام – ص ٤٩.

- إقبال والشباب الإسلامي:

الشـباب في كل أمة، هم رجال الغد، وبناة الحضـارة، والثروة الغالية، وعلى سـواعدهم تكتسب العزة والكرامة. هذا هو مقامهم لدى إقبال، منذ أن نظم الشعر وحتى آخر ديوان نظمه وهو (أرمغان حجاز).

ففي قصيدة جواب شكوى، التي هي من بواكير شعر إقبال، يتألم إقبال من شـباب الإسـلام الذين ابتعدوا عن دينهم، وأخذ يظن فيهم الظنون، وتأثرهم بالمدنية الغربية التي أعمت بصيرتهم عن الحقائق، وتركتهم حيارى بين المذاهب الهدامة التي نشـرتها بينهم، وكذلك ألهتهم بالملاهي عن العبادة وطلب المعالي، يقول إقبال مذكراً المسلمين بأجدادهم العظماء الذين تتردد قصص بطولاتهم على مر الزمان:

يعيدُ الكونُ قصتهمْ حديثاً ... وينشئُ من حديثهمُ الفنونا
فكَمْ نزحوا عن الأفكارِ شوقاً ... إلى التحليقِ فوقَ العالمينا
ويأسُ شبابِكم أدمى خطاهُمْ ... فظنوا فيه بالدينِ الظنونا
هـيَ المدنيـةُ الحمقـاءُ ألقـتْ ... بهم حولَ المذاهبِ حائرينا
لقد صنعتْ لهم صَنَمَ الملاهي ... لتحجبَ عنهمُ الحرمَ الأمينا[1]

وفي آخر ديوان نشـر لإقبال وهو ديوان أرمغـان حجاز (هدية الحجاز) يدعو الله عز وجل أن يمنح الشـباب حماسـته، وأن يعطيهم القوة وأسباب السمو بأنفسهم وأمتهم، يقول:

أعط آهتي السحرية للشباب،

(١) انظر قصيدة جواب الشكوى.

ثم أعط صغار الشاهين الريش والأجنحة

يا إلهي ليس لي إلا رغبة واحدة؛

أن تعطي الجميع نور بصيرتي.[١]

ويلقي إقبال باللوم على العصر والمدنية الحديثة في إفساد الشباب، لأنه بلا نور الإيمان ولا حرارة العاطفة والقلب، فيقول:

هذا العصر معلم للشباب،

هذا العصر نهار لليلة إبليس،

فهذا العصر بلا نور ولا حرارة.[٢]

ويرجع إقبال أسباب واقع الشباب المسلم المؤلم إلى التعليم الحديث الذي اعتنى بعقله وثقافته، ولم يعتن بدينه وأخلاقه وعاطفته، يقول:

«إن الشباب المثقف فارغ الأكواب، ظمآن الشفتين، مصقول الوجه، مظلم الروح، مستنير العقل، كليل البصر، ضعيف اليقين، كثير اليأس، لم يشاهد في هذا العالم شيئاً. هؤلاء الشبابُ أشباه الرجال ولا رجال، ينكرون نفوسهم، ويؤمنون بغيرهم، يبني الأجانب من ترابهم الإسلامي كنائس وديارا، شباب ناعم، رخو رقيق في الشباب كالحرير، يموت الأمل في مهده في صدورهم، ولا يستطيعون أن يفكروا في الحرية، إن المدرسة قد نزعت منهم العاطفة الدينية وأصبحوا خبر كان، أجهل الناس لنفوسهم وأبعدهم من شخصياتهم، شغفتهم الحضارة الغربية».[٣]

---

(١) محمد إقبال وديوان أرمغان حجاز (مرجع سابق) – ص ٢٣١.

(٢) المرجع السابق – ص ٢٣١.

(٣) روائع إقبال للندوي – ص ٥٥ – ٥٦.

ويقول في قصيدة: «لا أستغرب أيها الشباب المتعلم أنك حيٌّ جبان، فإن قلبك بارد لا لوعة فيه ولا حرارة، ونظرك غير عفيف، إن الشباب المثقف الذي استنارت عينه بنور الإفرنج قد يكون لبقاً في الحديث، متشدقاً في الكلام ولكن عينه لا تعرف الدموع، وقلبه لا يعرف الخشوع».[١]

ويتألم إقبال ويبكي دماً على الشباب المسلم الذي تأثر بالإفرنج، ويرجو يقظة روح العزة والكرامة فيه لينال المجد والسؤدد، وينصحه بعدم اليأس ويصفه بالعقاب والشاهين الذي يبني مسكنه في أعالي الأشجار والجبال، ولا يرضى الحياة بين الحفر بقاع الأرض.

يقول في قصيدة تكاد تسيل رقة وعذوبة حسب تعبير الشيخ الندوي:

«لقد هبت عليّ نفحة منعشة من نسيم السحر في الصباح الباكر فناجتني، وقالت لي: إن الذي عرف نفسه وعرف قيمته ومركزه لا يليق به إلا عروش الملوك وأَسرَّة السلاطين، إنه لا حياة لك ولا قوام ولا شرف ولا كرامة إلا بهذه المعرفة، فإذا ملكتها ملكت العالم، وإذا فقدتها أصبحت من سقط المتاع، إنه يتربى في مدرسة شعري وأدبي، شباب لا يملكون درهماً ولا ديناراً، لكنهم يملكون صولة السلاطين، ويحسنون آداب الملوك، إن لك الخيار، فاختر ما شئت، ولكنني بدوري لم يعجبني الفرار من الحياة والعكوف في الزوايا والخلوات.[٢]

ولم يكتف بإيقاظ الأصالة عند الشباب، وإثارة حماسهم وعاطفتهم الإسلامية، وهو يعرفهم أنهم يعيشون في فراغ فكري وعقدي، في ظل

---

(١) المرجع السابق – ص ٥٦.

(٢) روائع إقبال للندوي – ص ١٠١ – ١٠٢.

الغـزو الفكـري الغربي، وضـع لهم الأسـس والمرتكزات التـي يبنون عليها بنيانهم العقدي، ومن أهم هذه المرتكزات التي أسميها مرتكزات الصحوة الإسلامية:

أ – تجديـد التفكـير الديني في الإسـلام، لأن إقبال يراه ضـرورياً لعملية البعث الإسلامي.

ب – بناء فلسـفة جديدة تهدف إلى تربية الذات المسـلمة لتنقلها من حالة الضعف إلى القوة، ومن الذل إلى العزة.